قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي
السنة الثانية تاريخ مقيـاس : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس

المحاضرة الأولى : الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس

محاور المحاضرة :

1- الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

2- الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس.

1- الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

- **بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي:** تعاقبت عديد الحضارات على بلاد المغرب بدءا بالتواجد الفينيقي مرورا بالروماني فالوندالي والبيزنطي.
- **مراحل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:**

أ- **مرحلة الاستكشاف والاستطلاع:**

1- **حملة عمرو بن العاص** 23هـ/614م: بعد أن تم فتح مصر في سنة 21هـ، وبعد أن استقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة الفسطاط، وهنا يبدأ في محاولاته أواخر سنة 22 هـ اللاستيلاء على برقة، حيث تواجه مه قبيلة لواتة وهوارة، حتى استسلموا ودفعوا له مبلغ ثلاثة عشر ألف دينار في السنة، وبعدها نجد عمرو بن العاص يقود حملة عسكرية سنة 23هـ لفتح إقليم طرابلس، انتهت بعقد تفاهم مع قبيلة نفوسة، وعود بعدها إلى مصر.

- **موقعة سبيطلة ومواجهة البيزنطيين:**

كانت المواجهة البيزنطيين في بلاد المغرب مسألة وقت فقط، وقد أدرك عبد الله بن سعد بن أبي السرح هذا الأمر، فسار بقوة عسكرية

من نحو 20,000 رجل معظمهم من الفرسان، وقد ضم جيشه عددا من أبناء الصحابة، منهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فُسميت بحملة العبادلة، وصلت طلائع الجيش إلى أفريقية، فحدثت المواجهة مع الجيش البيزنطي عند مدينة سبيطلة، فانتصر المسلمون وقُتل قائدهم"جرجير".

2- حملة معاوية بن حديج:

توقف الفتح الإسلامي لبلاد المغرب لسنوات طويلة بسبب الفتنة الداخلية، ولم تتجدد عملية الفتوح الا بعد استقرار الأمري لمعاوية بن أبي سفيان سنة 41 للهجرة، في تلك الأثناء أرسل الروم بطريقا جديدا "جناديوس"، عين الخليفة معاوية بن حديج لاستكمال عملية الفتح، فلما وصلت طلائع الجيش الإسلامي أفريقية، سارع قائد الجيش البيزنطي"نقفور"وجنوده إلى سفنهم، واستولى المسلمون على مراكزهم.

ب - مرحلة الفتح المستقر:

1- ولاية عقبة بن نافع على إفريقية 50-55هـ:

كان عقبة بن نافع رجلا مقتدرا، وله خبرة واطلاع واسع بأخبار أفريقية، حيث كان يرافق أباه وهو صبي في الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، وقد دفعت به خبرته إلى التفكير مليا في إقامة قاعدة قارة تنطلق منها عملية الفتوح، فكان بناء القيروان سنة 55هـ.

2- ولاية أبي المهاجر دينار 55هـ-62هـ:

كان أبو المهاجر من خيرة الولاة - رغم إساءته معاملة عقبة بن نافع بعد صدور قرار عزله -حيث انتهج سياسة جديدة في الفتح، كسب بها مودة البربر، ومنهم زعيم قبيلة "أَوْرَبَة" كسيلة، فدخلت بذلك جماعات كبيرة من البربر البرانس في الإسلام.

3- ولاية عقبة بن نافع الثانية 62-64هـ:

أعاد الخليفة الجديد يزيد بن معاوية القائد عقبة بن نافع إلى منصبه، وبعد وصوله أفريقية لم يستطع أن يغفر لعقبة سوء صنيعه معه، فأساء معاملة كسيلة، واختار الطريق الأصعب حينما توغل في بلاد المغرب، فدخل جبال الأوراس، وعبر وادي الشلف، حتى وصل طنجة، ليخترق مواطن المصامدة وجبال الأطلس، ثم يتجه غربا حتى وصل أغادير، وتصور الروايات التاريخية مشهد إدخال قوائم فرسه البحر، ليُشهد الله أنه قد بلغ المجهود في سبيل نشر راية الإسلام، ثم قفل عائدا إلى القيروان، ليستشهد عند تهودة في كمين نصبه البيزنطون وحليفه كسيلة.

4- زهير بن قيس البلوي ينتقم لمقتل عقبة:

أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان جيشا قويا إلى أفريقية، حيث تواجه الجيش الإسلامي مع جموع الروم والبربر عند "قمود"، فانتصر المسلمون وقُتل كسيلة.

5- حسان بن النعمان ومواجهة الكاهنة 71-85هـ:

كان التحدي الأكبر الذي واجه حسان بن النعمان هو مقاومة البربر البتر، حيث برزت زعيمة قبيلة "جراوة" الكاهنة، التي تسميها الرواية الإسلامي "داهيا بنت واهيا"، حيث انهزم حسان في مواجهته الأولى أمام الكاهنة، وبعد سنوات وصلت الإمدادات من الخلافة سنة 79هـ، ودارت الدائرة على الكاهنة لتبنيها سياسة الأرض المحروقة، فانقلب البربر البرانس ضدها، وتمكن حسان من هزيمتها وقتلها وسط جبال الأوراس.

سعى حسان بن النعمان لتنظيم الإدارة الإسلامية في بلاد المغرب، حيث قسم البلاد إلى وحدات إدارية تسهيلا لجباية الخراج، كما أنشأ دار للصناعة بميناء تونس.

6- موسى بن نصير واستكمال عملية الفتح:

وجه موسى ضرباته لجماعة البربر في المنطقة الغربية من مدينة تونس الحالية، ثم أخذ يوجه أولاده في قطع من الجند تنزل بالناس الضربات وتعود محمّلة بالغنائم، ليسير بعدها باتجاه الغرب، وهنا يلتقي المسلمون مرة أخرى برجل اسمه "يليان" حاكم سبتة، فهادنهم وعاونهم بأمداد عسكرية، ليقوم موسة بن نصير باستحداث ولايتين جديدتين: الأولى بالمغرب الأوسط، والثانية بالمغرب الأقصى. [1]

- **نتائج الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:**

أسفر الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عن نتائج هامة نذكر منها:

- زواج سلطة البيزنطيين من المنطقة وفقهم قاعدة هامة في الحوض الغربي للمتوسط فأصبحت السيادة فيه للمسلمين.
- انتشار الإسلام بين سكان بلاد المغرب الذين أصبحوا من أكبر دعاته وقادة في جيوشه، فهم الذين سيفتحون الأندلس وينشرون الإسلام في إفريقيا وجنوب أوروبا.
- أثر الفتح الإسلامي في حياة سكان بلاد المغرب بشكل أساسي، حيث ساهم انتشار الدين الإسلامي واللغة والثقافة الإسلامية بين سكانه، حتى صار للمغرب طابعه العربي الإسلامي المعروف به حتى اليوم.
- سرعان ما تحولت منطقة بلاد المغرب الإسلامي إلى جسر للتواصل، حيث انتقلت عبره التأثيرات الحضارية الإسلامية إلى أواسط أفريقيا وقارة أوروبا.

2 - الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس:

- **الأندلس: أصل التسمية:**

- نعني بالأندلس الجزء الذي خضع لسيطرة المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، ذلك أن المسلمين حينما فتحوا الأندلس فتحوا

المنطقة كلها إلى جبال ألبرت، وإلى خليج بسكاي، ثم أخذوا في التراجع شيئا فشيئا حتى قامت الدولة الأموية سنة 138هـ/756م، وقد فقد المسلمون الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة لصالح النصارى الأسبان، ليستمر هذا المجال الجغرافي في الانحسار حتى اقتصر في نهاية المطاف على مملكة غرناطة2.

- ولفظ الأندلس مُعرّب جاء من لفظ "الوندال" الذين يُسمّون في اللغات الأوروبية "الفاندال أو الفاندلوس"، وهم من القبائل المتبربرة التي غزت شبه الجزيرة الإيبيرية
- في القرن الخامس الميلادي، ثم انحدروا نحو الجنوب حتى انتهوا إلى الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة، وهناك أقاموا زمنا طويلا حتى صار هذا الطرف يسمى "فاندلوسيا أو واندلوسيا"، لذلك حرّف العرب المسلمون هذا اللفظ إلى أندلس بعدما كان يعرف عندهم بـــ "وندلس"، ولا يزال هذا اللفظ قائما في إسبانيا إلى يومنا هذا، ويُطلق على محافظات الإقليم الجنوبي من إسبانيا3.

1- أوضاع شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامي:

كانت إسبانيا في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي تعاني ضعفا سياسيا واجتماعيا جعلها فريسة لأي فاتح يُقبل عليها من الشمال او الجنوب، فإذا نظرنا إلى طبقات المجتمع وجدناه منقسما إلى عدة طبقات:

الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء:

كان نظام الحكم بالانتخاب لا بالوراثة من أسرة القوط، فكانت الملكية إذن انتخابية، وعلى الرغم من محاسن هذا النظام الذي جعل الحكم للأصلح، إلا أنه قد أدى في النهاية إلى وجود تنافس مستمر بين النبلاء للوصول إلى العرش، فكثرت المؤامرات التي أدت إلى إضعاف قوة الدولة.

- طبقة رجال الدين:

كان نفوذ هذه الطبقة غير محدود، فكان عليهم أن يباركوا الملك الجديد بعد انتخابه، كما كانت ممتلكاتهم العقارية الواسعة معفاة من الضرائب مثلهم مثل أملاك النبلاء تماما.

- الطبقة الوسطى:

كانت هذه الطبقة هي المؤشر على توازن المجتمع، فهي ميزان المجتمع، وكان تعداد أفرادها في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي قليلا، مثقلة بالضرائب، وفي حالة سيئة.

- الطبقة الدنيا:

كان معظم أفراد هذه الطبقة يشتغلون في مزارع النبلاء ورجال الدين، فهم مرتبطون بالأرض التي يشتغلون فوقها، وهم مِلكٌ لصاحبها (أقنان) أي عبيد الأرض، محرومون من جميع الحقوق.

- طبقة اليهود:

كان عددهم كبيرا في إسبانيا، يشتغلون بالأعمال المالية والحسابية في دواوين الدولة، ولكنهم كانوا مكروهين بسبب تعاطيهم للربا، وقد حاولوا أكثر من مرة قلب نظام الحكم، كما كانوا على اتصال بأبناء ملّتهم في شمال إفريقيا، وعلى علم بأجواء الحرية الدينية في كنف المسلمين، مما جعلهم يرحبون بالفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية4.

أما عن الحالة السياسية لإسبانيا خلال الثلاثين سنة الأخيرة التي تسبق الفتح الإسلامي، فنجدها في حالة سيئة، ففي عهد الملك Egica(687-702م)، تم عقد عدة مجامع دينية للنظر في عدة مشاكل سياسية كانت تتخبط فيها إسبانيا.

سعى هذا الملك القوطي لإشراك ابنه غيطشة Witiza في الحكم، ولما توفي استبد ابنه غيطشة بالحكم دون أن ينتظر قرار مجلس النبلاء بانتخابه وفق التقاليد السارية، وحينما اشتدت حدة المعارضة ضده، أقام ابنه وقلة Akhila وليا للعهد، وحينما توفي غيطشة، وكان وقلة مقيما في شمال إسبانيا سارع للعودة لتسلم مقاليد الحكم، غير أنّ محاولته باءت بالفشل بعد هزيمة جيشه وعدم تمكنه من دخول العاصمة طُليطُلة، واختار النبلاء المعارضون لحكمه شخصا آخر من خارج الأسرة المالكة، وهو الدوق ردريق أو لذريق Rodrigo، ونصّبوه ملكا على إسبانيا بعد أن عزلوا وقلة بن غيطشة، وهنا ندرك درجة الانقسام السياسي الذي عرفته إسبانيا قبيل دخول المسلمين بين مُوال لحكم لذريق وبين معارض له، فكانت الفرصة موالية للمسلمين لاستغال هذا الوضع لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية5.

2- أسباب الفتح الإسلامي للأندلس:

هناك روايتان لتفسير أسباب الخلاف بين لذريق ملك القوط وبين يليان حاكم سبتة الذي أشرنا إليه سابقا، والذي قدّم المساعدة للمسلمين وشجع طارق بن زياد على غزو الأندلس، إحداها هي رواية عربية والأخرى رواية إسبانية لاتينية.

الرواية العربية: ركزت على الأسباب الأخلاقية، وملخصها أن يليان حاكم سبتة أرسل ابنته إلى قصر الملك لتتأدب بآداب القصور، فوقعت عين الملك عليها، فأُعجب بها وافتضها، ما دفع بأبيها إلى الحقد على الملك القوطي وقرر الانتقام منه بتسليط المسلمين على مملكته،" فَبَعَث إلى طارق: إني مُدخِلُك الأندلس"6.

الرواية اللاتينية: فضّلت التأكيد على الأسباب السياسية، وتذهب للقول بأن يُليان تولى الوساطة بين الساخطين على حكم لذريق من أبناء الملك الأسبق غيطشة وبين المسلمين، ولعل الهدف كان استعادة مُلكهم الضائع، ولكون سبتة كانت ملتجئا

للمعارضة الإسبانية، ما دفع يُليان إلى الاستعانة بطارق بن زياد لتحقيق هذا الهدف7.

3- عبور المسلمين المضيق والمواجهة الفاصلة:

بعد أن عقد موسى بن نصير العزم على غزو الأندلس، كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يُخبره ويستأذنه في غزو الأندلس، فكتب إليه الخليفة أن اختبرها بالسرايا ولا تغرّر بأرواح المسلمين في بحر شديد الأهوال8.

وبالفعل أرسل موسى بن نصير سرية من خمسمائة رجل يقودها "طريف بن مالك"، نزلت بالموضع الذي يحمل اسم هذا القائد (Tarifa)، وكان هدف هذه الحملة استكشاف المنطقة واختيار الموضع المناسب لنزول الجيش فيها، وقد عاد طريف محملا بالغنائم والأثقال، ممّا شجع موسى بن نصير على تكليف طارق بن زياد بقيادة الجيش، وحثّه للاستعداد لعبور المضيق9.

تمكن جيش طارق من النزول في الموضع الذي يحمل اسمه إلى اليوم "جبل طارق" بعد مقاومة عنيفة حسب ابن الكردبوس، حيث ذكر أنّ طارقا "وجد بعض الروم وقوفا في موضع وطيء، كان عَزَم على النزول فيه إلى البّر فمنعوه منه، فعدل ليلا إلى موضع وَعْر فوطئه بالمجادف وبراذع الدواب، ونزل منه في البرّ، وهم لا يعلمون، فشنّ عليهم، وأوقع بهم وغَنِمهم"10، وفتح حصن قرطاجنة المتواجد على سفح الجبل، وأدرك لذريق حجم المخاطر التي تتهدّده، وكان وقتئذ مشغولا بإخماد ثورة اندلعت ضده في الشمال الإسباني، فسارع بالعودة إلى العاصمة طليطلة وأخذ في حشد الجنود حتى شكل منهم جيشا ضخما بلغ حسب بعض المصادر ما بين التسعين ألفا والمائة ألف مقاتل.

وقعت المعركة الفاصلة عند "شذونة"، وكان النصر حليف المسلمين، واستطاعت هذه القوة الصغيرة أن تهزم جحافل الجيش القوطي، وتدخل طليطلة، ففر منها أهلها وعلى رأسهم أسقفها "سندريد" إلى الشمال الشرقي.

4- موسى بن نصير يشترك في فتح الأندلس:

بعد تقاطر أخبار الفتح إلى موسى بن نصير، لم يتردد في السير على الأندلس على رأس جيش قوامه 18 ألف مقاتل معظمهم من العرب، وفي رمضان سنة 93هـ دخل الأندلس وفتح عدة مدن منها: قرمونة، قلعة وادي إبرة، كما حاصر إشبيلية حتى استسلمت له، ووصل بفتوحاته إلى ماردة، والتقى بطارق فعاتبه على عدم امتثال أوامره، ثم اشتركا في استكمال عملية الفتح.

الحواشي:

[1] حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، ط4، دار الرشاد، القاهرة، 2000م، ص ص31 -63.

[2] مؤنس، **مرجع سابق**، ص ص262- 263.

[3] المرجع نفسه، ص 263.

[4] العبادي، **مرجع سابق**، ص ص 49-50. راجع أيضا: زيتون، **مرجع سابق**، ص ص 149، 151.

[5] العبادي، **مرجع سابق**، ص 51.

[6] ابن عبد الحكم، **مصدر سابق**، ج1، ص 277.

[7] مؤنس، **مرجع سابق**، ص268.

[8] زيتون، **مرجع سابق**، ص ص 157، 158.

[9] المرجع نفسه، ص 263.

[10] عبد الملك بن الكردبوس، **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، تح: صالح بن عبد الله الغامدي، ط1، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1429هـ/2008م، ص 1007.